ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Dr. Aseel Abad ALsattar Hachem

University of Baghdad / College of Education Ibn Rushd for Human Sciences

Email:
aseel.abadalsatar@ircoedu.uobaghdad.edu.iq
07717188269

Keywords:

Iraq, history, the Ottoman Empire, Medhat Pasha, the Tanzimat movement, reforms

Article info

Article history:

Received 27.July.2022

Accepted 30.Aug.2022

Published 1.Nove.2022

The Manifestations of the Modern Renaissance in Iraq in the Late Ottoman Era

A B S T R A C T

The Ottoman Reform Movement Entered Iraq with Midhat Pasha's Assumption of the Governorship of Baghdad (1869-1872). Collective and Elite Iraqi Society, from the Second Half of the Nineteenth Century until the Beginning of the Twentieth Century. So, the Idea of the Research Topic Came to Benefit from the Historical and Achieve a Contemporary Approach.

The research Included an Introduction, Three Chapters, and a Conclusion that Included the most Important Conclusions Reached by the Research at the end of its Study. The First Topic Focused on the Study of Administrative Factors Associated with the Ottoman Organizations Movement and its Impact on Supporting the Centralization of the State. The Second Topic Examined the Spread of Education and its Reformist Effect. The Third Topic was Concerned with the Study of Factors of the Formation of Iraqi Political Awareness between the Emergence of the Iraqi Political Elite and the Concept of the State .

© 2022 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol49.Iss1.3231

" مظاهر النهضة الحديثة في العراق في العهد العثماني المتأخر "

أ.م.د. أسيل عبد الستار حاجم
جامعة بغداد / كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية

الملخص

دخلت حركة الإصلاحات العثمانية العراق مع تولي مدحت باشا ولاية بغداد (1869 –1872) وكان لذلك اثر كبير في احداث تغيير جذري للمجتمع العراقي ، بدء من اجراء إصلاحات إدارية عززت من نظام الحكم المركزي وسعت الى التقليل من مظاهر الفوضى داخل المجتمع وصولا الى تكوين الوعي السياسي الجمعي والنخبوي للمجتمع العراقي ، منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر حتى مطلع القرن لعشرين. من هنا جاءت فكرة موضوع البحث للاستفادة التاريخية وتحقيق مقاربة معاصرة .

أشتمل البحث على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة تضمنت اهم الاستنتاجات التي توصل اليها البحث في نهاية دراسته . ركز المبحث الأول على دراسة عوامل ادارية ارتبطت بحركة التنظيمات العثمانية واثرها في دعم مركزية الدولة ، ودرس المبحث الثاني انتشار التعليم واثره الاصلاحي، اما المبحث الثالث فقد اختص في دراسة عوامل تكوين الوعي السياسي العراقي بين نشوء النخبة السياسية العراقية ومفهوم الدولة .

الكلمات المفتاحية : العراق ، تاريخ ، الدولة العثمانية ، مدحت باشا ، حركة التنظيمات ، إصلاحات

المقدمة :

يختص البحث بدراسة موضوع " مظاهر النهضة الحديثة في العراق في العهد العثماني المتأخر " ويأتي ملازما لمحاور لمؤتمر العلمي الثاني للدراسات الانسانية لرابطة اشنونا للكفاءات العلمية الموسوم بـ " العلوم الانسانية بين التراث والمعاصرة ، منارة ابداع وتجدد دائم " للمدة من 27 -28/ تموز/ 2022 . المحور الثاني محور الدراسات التاريخية في حقل الدراسات التاريخية .

أهمية الموضوع :

دخلت حركة الإصلاحات العثمانية العراق مع تولي مدحت باشا ولاية بغداد (1869 –1872) وكان لذلك اثر كبير في احداث تغيير جذري للمجتمع العراقي ، بدء من اجراء إصلاحات إدارية عززت من نظام الحكم المركزي وسعت الى التقليل من مظاهر الفوضى داخل المجتمع وصولا الى تكوين الوعي السياسي الجمعي والنخبوي للمجتمع العراقي ، منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر حتى مطلع القرن لعشرين. من هنا جاءت فكرة موضوع البحث للاستفادة التاريخية وتحقيق مقاربة معاصرة .

اشكالية موضوع البحث:

ترتبط إشكالية البحث ارتباطا وثيقا بصياغة رؤية تاريخية لواقع العراق الراهن ومشكلاته ، التي جاءت نتيجة حتمية لواقع مؤلم عاشه العراق بسبب سياسة الاهمال الاداري التي كان قد عانى منها ، حتى عدته الدولة العثمانية اقليما صحراويا منعزلا يعيش حياة البداوة وغير قادر على التأقلم مع نهضة التحديث وحركة الاصلاحات. غير ان تولي مدحت باشا ولاية العراق بين عامي (١٨٦٩-١٨٧٢) احدث ثقبا في جدار العزلة الذي بدى يتهاوى ولو بشكل بطيء ، بما كان ينبئ آنذاك بالتغيير النسبي بعيدا عن حالة الجمود التي شهدتها الفترات التاريخية السابقة .

الاطار التاريخي للبحث :

يبدء البحث الدراسة عام 1858 ، وهو تاريخ صدور قانون الملكية الذي اقترن بحركة الإصلاحات العثمانية وكان خطوة أولى نحو ادخال تلك الإصلاحات في العراق وتولي مدحت باشا بعد ذلك ، واثر اصلاحاته في تنمية الوعي السياسي والثقافي ، ليمتد ليعالج اهم التطورات التي انعكست على المجتمع العراقي حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وانهيار الدولة العثمانية عام 1918 .

منهجية البحث :

يعتمد البحث في دراسته منهج البحث التاريخي لتحليل اهم المحددات والعوامل المؤثرة في تاريخ العراق الحديث والى أي مدى نجحت تلك المحددات وما مدى اسهامها في حركة النهضة الحديثة والمعاصرة .

هيكلية البحث :

أشتمل البحث على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة تضمنت اهم الاستنتاجات التي توصل اليها البحث في نهاية دراسته . ركز المبحث الأول على دراسة عوامل ادارية ارتبطت بحركة التنظيمات العثمانية واثرها في دعم مركزية الدولة ، ودرس المبحث الثاني انتشار التعليم واثره الاصلاحي، اما المبحث الثالث فقد اختص في دراسة عوامل تكوين الوعي السياسي العراقي بين نشوء النخبة السياسية العراقية ومفهوم الدولة .

شهد العراق ، منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين ، بروز مظاهر الحداثة والتطور، اذ بدأت الدولة العثمانية تميل الى اصلاح نظامها الإداري والسياسي والاقتصادي طبقا للنمط المستحدث من النهضة الاوربية . وكان لتلك المحاولات الأثر الواضح في اصلاح الدولة العثمانية حتى ظهرت معطياتها في الولايات العربية لاسيما العراق ، مما انعكس في بلورة الوعي السياسي وتحديد موقف النخب ، على اختلاف مشاربها ، من التحولات الاجتماعية والسياسية التي عاشها العراق ابان تاريخه الحديث ، لاسيما مطلع تشكيل الدولة المعاصرة .

ومن بين اهم محددات تلك النهضة والعوامل المؤثرة فيها :

الإصلاح الإداري وتقوية مركز الولاية

بعد انتشار مفاهيم الإصلاح والتغيير والدعوة الى صياغة مجموعة رؤى وأفكار لعدد من المفكرين والمستنيرين ، كان رشيد باشا الصدر الأعظم (1800 – 1858) في مقدمتهم ، صدرت سلسلة من القوانين والقرارات الإصلاحية في عهد السلطان عبد المجيد الأول (1839 – 1861) ، عرفت بـــ " التنظيمات " [1] ابتداء بخط كلخانة الصادر في الثالث من

تشرين الثاني عام 1839 وخط همايون الصادر في شباط عام 1856 وقانوني الولايات العثمانية 1864 ولائحة تنظيم الولايات العثمانية 1871 ، مما أدى الى تعزيز سيطرة الدولة العثمانية وإعادة ربط الولايات التابعة لها . [2]

كان العراق في ظل تلك المحاولات الإصلاحية يعاني من عوامل ضعف كثيرة ، اذ ظل محكوما لعدم استقرار أوضاعه الداخلية سيما ابان الحكم المملوكي (1750 – 1831) ، فضلا عن تعرضه لهجمات بعض القوى الخارجية مثل حكام بلاد فارس والحركة الوهابية ، التي اخذت تنشط في نجد والحجاز أواخر القرن الثامن عشر ، ناهيك عن انتفاضات العشائر المتكررة [3]. اذ سيطرت الدولة العثمانية على المدن الكبيرة (بغداد ، البصرة ، الموصل) أما بقية مناطق العراق الأخرى فقد وقعت تحت سيطرة القبائل ، كان يحسب للعشائر قوتها في الإدارة وغالب الحوادث ناجمة عن صلتها بالإدارة والنزاع حول الأراضي[4] وكثيراً ما كانت تلك العشائر تتمرد وتثور على الدولة العثمانية ؛ بسبب قيام الأخيرة بفرض الضرائب على تلك العشائر والتي مثلت تحدياً كبيراً للدولة العثمانية ، ولذلك كانت المدة الواقعة ما بين(1836– 1850) تمثل ذروة القوة والعُنف الذي استعملته السلطات العثمانية ضد العشائر العراقية الثائرة ، وحاولت الدولة العثمانية بتلك الحملات إضعاف وتفكيك الروابط القبلية والقضاء على نظم القبائل وأعرافها إلا أنها لم تنجح في ذلك وظلت القبائل محتفظة بتقاليدها وأعرافها الاجتماعية بل أدت تلك الحملات الى نتائج عكسية اذ قويت شوكة تلك القبائل التي قامت بأنشاء اتحادات قبلية فيما بينها، وأشهر تلك الاتحادات ، اتحاد قبائل (الخزاعل) في منطقة الفرات الأوسط . [5]

عينت الدولة العثمانية قائدا حازما من قادتها في حرب القرم وهو عمر باشا (1858–1859) الملقب بـــ (سردار أكرم) ليتولى شؤون ولاية بغداد ويواصل عملية فرض النظام وإخضاع العشائر وبسط نفوذ الدولة في ارجاء الولاية . بدأ عمر باشا اعماله بإعادة تنظيم الوحدات الإدارية ، لاسيما تلك التي تشهد اضطرابات وقلاقل بين العشائر مع بعضها البعض وبين العشائر وسلطة الولاية وكانت من أولى المهمات التي حشد لها عمر باشا جهوده هي تطبيق قانون الخدمة العسكرية وفرض التجنيد الاجباري على السكان . [6]

استمر الوالي محمد نامق باشا ، بعد ان عينته الاستانة حاكما لولاية بغداد(1862– 1867)، في تقوية الجيش النظامي ، اذ قام ببناء ثكنة لوحدات الجيش السادس في مدينة بغداد وعززها بوحدات أخرى تتخذ من مدينة العمارة معسكرا دائما لها . [7]

دفعت تلك العوامل مجتمعة الدولة العثمانية الى نهج سياسة أخرى تجاه العشائر العراقية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومحاولة ربطها بالدولة وكان من أولى ثمار حركة التنظيمات العثمانية في العراق صدور قانوني " نظام الملكية " في الحادي عشر من نيسان عام 1858 و " نظام الطابو والتسجيل العقاري " في الرابع عشر من كانون الأول 1858 [8]، الذي زاد من أهميته الإدارية ومدلوله الاجتماعي والوطني انه كان سببا مباشرا في توطين العشائر الرحل ضمن في مناطق مستقرة بين نهري دجلة والفرات ، وان كانت الغاية من عملية توطين واستقرار القبائل هي تسهيل مهمة الدولة في جمع الضرائب منها وتجنيد أفرادها ، الا انه من جهة أخرى ادت الى توثيق الصلة الاجتماعية بجغرافية المكان حتى صارت جزء من هوية الفرد القبلي ومكنت الدولة من الحد من اعمال الغزو والسلب ومهاجمة المدن والقرى المجاورة كما نمت روح الانتماء لدى ابناء القبائل وتحولت شيئا فشيئا الى ظهور وتقوية روح المواطنة لديهم [9]. الانتقال من حياة البداوة نحو الريف وهي خطوة محمودة نحو الحضارة فالريف يعني الانتقال الى نمط اخر من العمل في الزراعة وهو من ناحية أخرى يعني القرب من طرق النقل والمدن والقرب من حياتها فباتت اكثر التصاقا بالأرض والحياة الزراعية اقرب منها للبداوة فلا ينفر منها البدوي . [10]

عبر " نظام الملكية " [11] كذلك عن مفهوم الدولة العثمانية لكل الأراضي باستثناء الحيازات الخاصة واراضي الوقف الإسلامي ، اذ حافظ نظام الملكية على حق الدولة في ملكية الأرض ، غير انه منح بعض الافراد سيما شيوخ القبائل الحائزين حقا قانونيا وموروثا بملكيتها. وقد حاول الوالي الطموح مدحت باشا (1869–1872) ان يقنع العشائر والقبائل العراقية بجدوى أهمية " نظام الملكية " والعمل به [12]، موضحا انه ومن خلال ذلك القانون ، سيتم تثبيت حدود الأراضي ومساحاتها في سجلات رسمية وسندات لا تقبل التغيير الا ضمن حدود القانون ، الامر الذي مهد فيما بعد لإقرار" نظام الطابو " . [13]

جدير بالذكر انه رغم رسوخ الحالة القبلية الا انها شهدت تراجعا نسبيا عن مواقع قوتها ووسائل سلطتها ، اذ اسفرت تلك الجهود عن نجاحات نسبية ، مهدت لتكوين مجتمع عراقي حديث على حساب الحالة القبلية التي كانت تشكل فوضى اجتماعية مقارنة بضرورة إرساء مبادئ التماسك الاجتماعي وتشكيل الهوية الوطنية اطارا لذلك التماسك ، اذ أدى " نظام الملكية " الى تقسيم القبائل الكبرى والعشائر الى اقسام قبلية وعشائرية اكثر عددا واقل قوة لحساب تكوين مجتمع عراقي حديث اميل الى التزام مركزية الدولة واحترامها . [14]

لقد افرز مجيئ الوالي الطموح مدحت باشا حاكما على العراق نتائج انية في عهده وأخرى تراكمية لسنوات أعقبت مدة حكمه ، اذ بدأت الدولة العثمانية تساند الوالي في توجهاته الاصلاحية وتطلعاته نحو تحقيق النهضة للبلاد من خلال التوجه نحو إعادة تنظيم امورها الإدارية والاهتمام بالزراعة والصناعة مع التشديد على تبني فكرة المدنية ونبذ البداوة . [15]

استند مدحت باشا الى قانون " الولايات العثماني " في تنظيم الإدارة المحلية في العراق فعرفت البلاد في عهده تنظيما مركزيا يسيطر على ابعد مدينة وقرية . لذلك قام بإجراء تغييرات إدارية تمثلت في استحداث لواء او قضاء او رفع مستوى قضاء وغير ذلك . فبعد ان كان العراق مقسما الى أربعة ولايات هي (بغداد ، البصرة ، الموصل ، شهرزور) اقتصر على ولايتين هما (بغداد ، والموصل) تتبعهم عددا من الايالات والاقضية والنواحي والقرى ، اذ ضمت بغداد سبع ايالات (بغداد ، الحلة ، كربلاء ، العمارة ، المنتفك، البصرة ، ونجد) وضمت الموصل (الموصل ، كركوك ، والسليمانية) [16]. وما ينبغي الاشارة اليه في هذا الصدد ، ان مدحت باشا كان قد فكر بتحويل شيوخ العشائر الى موظفين رسميين للسيطرة على تصرفاتهم وضمان وقوفهم الى جانب الدولة العثمانية . فعلى سبيل المثل كان مدحت باشا قد وقع اختياره على ناصر السعدون ليجعله أنموذجا لذلك الأسلوب الجديد في إدارة الدولة ، حيث ارسل في طلبه يدعوه الى زيارته في بغداد ، ليشرح له فكرته بتحويل المشيخة الى متصرفية وولاية ، مبينا له النتائج الإيجابية اذا ما عمل المركز على بناء مدينة جديدة تتمتع بالعمران الحضاري والتقدم العصري . وقد وافق السعدون على فكرة مدحت باشا بعد ان لمس منه عزيمة صادقة في المضي قدما بتحديث النظام الإداري دون أي تراجع وبما لم يعد بإمكانه ابداء المقاومة فالتغيير قادم لامحالة [17] . لذا تنازل السعدون عن المشيخة وقبل ان يعين . [18]

تطور التعليم واثره الإصلاحي في المجتمع العراقي

استكمالا للخطوات الإصلاحية ولأهمية التعليم في النهوض بواقع الدولة ووضع أساس لمرتكزات الحكم سعت الحكومة العثمانية الى تأسيس" مجلس المعارف " و اصدار ما يعرف بـ " قانون التعليم العام " احد ثمار الإصلاح عام 1869، الامر الذي القى بضلاله على واقع التعليم في العراق واسهم في انتقاله لمرحلة أخرى من الحداثة بعيدا عن الشكل التقليدي الذي كان متمثلاً بالكتاتيب والمدارس الدينية التي كانت سائدة طوال العهود السابقة ، لاسيما ابان حكم الوالي المملوكي داود باشا (1816– 1831) [19]، الذي عزز من مكانة المدارس الدينية إرضاء للعلماء وكسبا لدعمهم لما لهم من اثر

كبير في تحقيق سبل الاستقرار السياسي والمجتمعي في العراق وتناغما مع مشاعر العامة من البسطاء المنقادين لعلماء الدين. فلقد تمسكت المدارس الدينية التابعة للجوامع وللبيوتات الدينية المعروفة بمبادئ محددة لا تخرج عن التعاليم الدينية وتدريس كل ما يتصل به ، الامر الذي جعل من تلك المدارس محدودة الجانب ضيقة الأفق ، على خلاف المدارس الحديثة التي بدأت تنتشر وتغير من كل الأنماط الشائعة آنذاك لتبدأ بتدريس العلوم المختلفة من اللغات والعلوم الصرفة ، فضلا عن مادتي الرسم والخط لما لهما من اثر في تنمية المواهب وفسح المجال امام الطلبة للاطلاع على نوع من الفنون الجميلة بعيدا عن روح الرتابة والنمط التقليدي للدراسة العلمية . [20]

عمل مدحت باشا على تأسيس مدرسة عسكرية لتهيئة الطلاب العراقيين للالتحاق بالكلية العسكرية في استانبول تحقيقا لفكرة اعداد ضباط عراقيين للجيش وتأسست في بغداد مدرسة اعدادية عسكرية كانت مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات وتأتي المدارس الإعدادية بعد المدارس الرشدية في المستوى العلمي وانشأت اول مدرسة اعدادية في بغداد عام 1873 أصبحت موضع اهتمام السلطة العثمانية فعينت لها ملاكا كاملا من ضباط الجيش بسبب قلة المدرسين المختصين بالعلوم العسكرية [21] تنوعت المدارس تبعا لذلك وتعددت اختصاصاتها ومراحلها فهناك المدارس الرشدية المدنية والعسكرية والمدارس الإعدادية المدنية والعسكرية ومدرسة الصنائع ، مما يصب في تلبية حاجة الدولة الى دعم المؤسسات الإدارية والمدنية والعسكرية بعناصر متعلمة تعليما حديثا [22] ، اذ بلغ عدد المدارس الرشدية في الولايات العراقية عشرون مدرسة سبعة منها في ولاية الموصل وضمت 318 طالبا وثمانية منها في ولاية بغداد ضمت 377 طالبا وخمس مدارس في البصرة ضمت 144 طالبا. كذلك أسست المدارس الرشدية الخاصة بالإناث وكانت أولها في الموصل عام 1899 [23] ، وتعد اول مدرسة رشدية للبنات تتأسس في العراق في العهد العثماني وكانت تضم عشرين طالبة بحسب سالنامة عام 1899 [24]، وتضمنت منهاج تلك المدارس اللغتين الإنكليزية والفرنسية ، فضلا عن الحساب والتاريخ والجغرافية والكيمياء التي باتت تعد مادة أساس في المدارس منذ عام 1902، مما انعكس في تنوع مصادر المعرفة . [25]

رغم ذلك سجلت المصادر حالة الإهمال الذي أصاب التعليم وعدم تنظيم اموره اذ تصف سالنامة بغداد الصادرة عام 1892 أوضاع التعليم بالعراق بأنه لا يعد شيئا قياسا الى كبر مساحة البلاد وكثافة سكانها، لذا كرست جهود الولاة العثمانيون الاهتمام بزيادة اعداد المدارس الابتدائية في أماكن مختلفة والتي بلغ عددها اثنان وثلاثين مدرسة ابتدائية في عام 1911 منها احدى عشرة مدرسة في بغداد وواحدة في كل من بعقوبة والعزيزية وكوت الامارة والرمادي وعانة وشهربان والخالص وسلمان باك وأبو غريب والفلوجة والرحالية وكربلاء والمسيب والهندية والكوفة والشامية والجعارة والسماوة . حرصت الحكومة العثمانية وادارتها في العراق على إيلاء مراكز المدن والاقضية والنواحي الاهتمام في زيادة اعداد المدارس ورفدها بهيئات متخصصة من معلمين واداريين ، اذ ذكرت سالنامة الموصل عام 1890 ان عدد المدارس فيها وصل الى اثنتي عشرة مدرسة بينما سجلت سالنامة بغداد للعام 1896 انشاء مدرسة حكومية في مدينة كربلاء في الوقت الذي افتتح فيه الأهالي ثمانية مدارس ، فضلا عن العديد من المدارس في قضاء النجف التي تنوعت فيها المدارس ما بين الحكومية والدينية ومن مختلف البلدان الأجنبية وقد قفز عدد المدارس فيها الى احدى وثلاثين مدرسة عام 1898 كذلك بغداد التي وصل عدد المدارس فيها اثنان وثلاثين مدرسة عام 1911 بين مركز المدينة والاقضية " [26] . اما في الموصل فقد بلغ عدد المدارس فيها سبعة عشرة مدرسة في مركز الولاية ، وست وثلاثين مدرسة في الالوية والاقضية التابعة لها، وثلاثين مدرسة في السليمانية ، وخمس عشرة مدرسة في أربيل ، ومدرستين في كل كويسنجق وكفري وعقرة بينما لم يكن هناك اكثر من مدرسة واحدة في كل من راوندوز وزاخو . [27]

بدأت معاهد اعداد المعلمين بالانتشار لتخريج هيئات تعليمية تمتلك مقومات الكفاءة العلمية للتدريس في مدارس الولايات التي كانت تعاني من قلة عدد المعلمين وضعف كفاءتهم لكن مع تطور معاهد اعداد المعلمين وزيادة اعداد

خريجيهم بدأت مهام جديدة لتلك المعاهد في الاشراف على المدارس واعداد برامج تدريسية لتطوير معلمي المدارس لاسيما الابتدائية . وعلى الرغم من ان اعراف المجتمع العراقي كانت تقف عائقا امام تعليم المرأة وعلى الرغم من محدودية فرص التعليم للإناث التي لم تتجاوز في نهاية العهد العثماني الأخير بعض الكتاتيب الخاصة بالإناث تقوم بالتدريس فيها امرأة تعرف بانها " ملة " ، واقتصر تلك على مراكز المدن الكبيرة الان المدارس الخاصة بالإناث بدأت بالانتشار لأول مرة في بغداد في عهد الوالي نامق باشا(1899–1902) الذي انشأ لهن مدرسة ابتدائية وأخرى رشدية ، وبلغت المدارس في بغداد عام 1911 ثلاثة مدارس للإناث ضمت مائة وتسع واربعين تلميذة . وأشارت سالنامة الموصل للعام 1911 الى مدرسة ابتدائية واحدة في محلة سرجخانة كانت تضم اربع عشرة تلميذة ، اما في البصرة فلم تؤسس مدارس للإناث فيها الا في عام 1902 حيث انشات مدرستان للإناث كانت احداهما في مركز المدينة والأخرى في منطقة العشار . نجحت بذلك السياسة التعليمية في تخريج عدد من الطلبة ثم تعيينهم موظفين في الدوائر الحكومية في العراق منذ نهاية القرن التاسع عشر وكان لمدارس الحقوق دورا في اعداد مجموعة من العراقيين المتعلمين تعليما مدنيا عاليا كما ساهمت المدارس الأخرى في اكتساب الدارسين المعلومات الحديثة التي كانوا تلقوها من المناهج الدراسية . [28]

بعد احتلال بريطانيا لبغداد في الحادي والعشرين من اذار 1917 قامت دائرة المعارف كخطوة أولى بافتتاح دار المعلمين في بغداد كما أعلنت تشكيل مجلس للمعارف ودعت كل من (شكري الالوسي ، جميل صدقي ، الأب انستاس ماري الكرملي ، و حمدي بابان) لإصلاح وتطوير سياسة التعليم وكان من خطوات المجلس ان قام بزيادة اعداد المدارس الابتدائية الى ثمان وعشرين مدرسة تسعة عشر منها في بغداد وتسع في البصرة . [29]

عوامل تكوين الوعي السياسي العراقي ومفهوم الدولة

كان لصحيفة الزوراء العراقية التي تأسست في 1869 دورا كبيرا في تكوين ونمو الوعي السياسي في العراق من خلال تداولها العديد من الأفكار السياسية في البيئة الثقافية العراقية ، او عن طريق الاخبار المنقولة من الغرب او التحليلات السياسية التي تبنت نشرها . لقد فتحت الزوراء الاذهان الى إمكانية تدخل عامة الشعب في سياسة الحكومة من خلال اشارتها الى اجتماع عامة سكان باريس حول بناية المجلس الوطني الفرنسي للتعبير عن السخط والتبرم والرفض للإجراءات الحكومية حول انتخابات أعضاء (مجلس مبعوثان الملة) في فرنسا. او الإشارة الى الدور الذي يمكن من خلاله ان يضطلع به المثقفون والمتعلمون في تنوير الاذهان وحشد الجهود نحو التغيير، من خلال التنويه الى الدور البارز للكاتب الفرنسي فكتور هيجو وبعض زملائه في دفع الراي العام نحو اتجاهات سياسية معينة ولم يغب عن ذهن محرري الصحيفة الخشية من فهم المواضيع المطروحة بشكل اخر لذا عمدت الى أسلوب التنبيه والإرشاد [30]، حتى غدت تكرس معظم اخبارها ومقالاتها لمتابعة الاحداث السياسية في أوربا واخبار المعارضة السياسية التي اطلقت عليها الجريدة تسمية " الحركات غير المرضية " فضلا عما كان يرد فيها من إشارات مستمرة الى فكرة (الجمهورية) التي طالب بها الشعب الفرنسي في اعقاب العودة الى النظام الملكي ، اما موضوع الانتخابات الذي شغل العديد من الأوساط السياسية في البلدان الاوربية ، اذ تابعت باهتمام نشاط البرلمان الإنكليزي الذي كانت تدعوه " مجلس إنكلترا المسمى بارلمنتو " واخبار الوحدة الإيطالية ونشاطات غاريبالدي الذي كثيرا ما وصفته بـ " الشقاوة " . [31]

عملت الزوراء على تنبيه الاذهان نحو البون الشاسع والهائل بين ما بلغته الأمم المتقدمة والاحوال الراكدة المحيطة بالعراق من خلال التعرض لأفكار ومفاهيم سياسة حديثة عن الحرية والوحدة بشيء من التفصيل و بما يشير الى ان تلك المفردات قد تم طرحها في الوسط الثقافي العراقي ، الذي لابد انه بدأ يفكر فيها ويسال عن محتواها واثارها . ولكن السؤال

ما جدوى تلك الأفكار التي لابد للمثقف ان وعاها وادركها في سياق معارفه المحلية واصوله الثقافية اذا ما كان قد وعى معنى الحرية والديمقراطية والانتخابات والانتفاض على الظلمة .[32]

من خلال مراجعة أصول العلماء الذين تصدوا لمعالجة القضايا الفكرية في العراق خلال القرن التاسع عشر نجد ارتباطهم الواضح بجذور عائلية لها من الحظوة والمكانة الرفيعة في المجتمع العراقي فال الالوسي ومنهم أبو الثناء ومحمود شكري تركزت جهودهم في مجال علوم اللغة والدين والفقه والحديث . ومن الاسر من استند الى عراقة اسرته ونفوذها السياسي مثل اسرة كمال الشاوي التي قدمت العلماء والشعراء فكان منهم عبد المجيد الشاوي الذي درس على يد ابرز علماء عصره وحصل على ارفع المناصب الإدارية حيث عمل في دائرة تحرير الولاية ومحررا بالقسم العربي لصحيفة الزوراء ووكيل المتصرفية لواء العمارة (1905– 1907)، وهناك من اعتمد على قوة عائلته المالية وسعة علاقاتها التجارية مثل عبد الواحد بن عبد الله بن عبد اللطيف باش اعيان ت 1919 ، ومن استند الى مركزه الديني ودعم الارساليات التبشيرية له مثل القس سليمان الصائغ والأب انستاس ماري الكرملي ت 1947، ومن الاسر من اشتهر وذاع صيته مستندا الى البيئة المحلية فمدينة النجف بمكانتها الدينية وتركز الطلاب والمجتهدين فيها قيض لها ان تقدم الاسر العلمية ال كاشف الغطا وال الشيخ راضي وال الجواهري وال القزويني وال الجزائري وغيرهم . اسفرت تلك الإصلاحات عن نجاحات ونتائج مهمة في بلورة بيئة اجتماعية مهدت لتشكيل مجتمع عراقي يقترب من روح المدنية على حساب الحالة القبلية التي ظلت ترهن المجتمع العراقي وتثير في الفوضى وانفلات روح الانتماء الوطني . [33]

غير ان التيار الإسلامي كان طاغيا بسبب انتماءات السكان الدينية والطائفية ، التي اخذت تتحكم بشكل كبير في اتجاهاتهم السياسية وتحديد موقفهم إزاء السلطة العثمانية فهم أولا مسلمون اذا تعرضت الدولة العثمانية المسلمة الى خطر يهددها من الغرب المسيحي . وفي حالات أخرى منتمون الى طوائفهم واحيائهم وقبائلهم اذا ما كان الخطر يتهددهم من السلطة العثمانية . انعكست تلك الأفكار والممارسات ، في ظل ظروف متباينة وغير مستقرة كهذه، على النخبة العراقية الواعية والتي وجدت ان المجالات المتاحة امامها ضيقة وشبه معدومة ، لذلك انحصرت جهود فئة من النخب ، لاسيما في مراكز المدن ذات الصبغة الدينية ، في مجال الدراسات الدينية واللغة والآداب ولترتكز الأنشطة وتحتكر من الاسر العلمية التي قيض لها ان تتبوأ مكانة رفيعة في الحياة العامة على الصعد السياسية والاجتماعية ، ولم تكن تلك المكانة تتحصل لولا الحظوة الاقتصادية التي كانت تتمتع بها تلك الاسر وتعدد مصادر الدخل لديهم حتى كانت اسر ال الشاوي والالوسي والحيدري والسويدي والرحبي وغيرهم يرفدون الحياة العلمية بنتاجهم الفكري . [34]

سعى التيار المدني الناشئ ، المؤمن بالتغيير الاجتماعي الذي تحدده حاجة المجتمع ومتطلباته الاقتصادية، الى إزاحة المعتقدات القديمة في الذهنية العراقية فمعظم أبناء ذلك التيار قد مكنتهم ظروفهم المادية الجيدة السفر الى عدد من بلدان العالم [35])، لاسيما أوربا وان يطلعوا على مبادئ الحركات والأفكار السياسية [35] بموازاة ذلك كانت هناك طبقة نخبوية طرقت مفاهيم العلمنة والتغيير الاجتماعي تطرفت في طرحها حتى دعت الى اقصاء شبه كامل للدين الحياة والمجتمع وشكلت تيارا لا دينيا انصرفت جهوده الى تطوير قدرات المجتمع الثقافية [36] وتحولاته ووجهت سهام النقد الى ما كانت تتهمهم بـ " القدرية " في إشارة الى التيار الديني مشبهة إياهم بـ " حرس الفكر القديم " فهم لا يتعاملون مع تطورات الحياة بل يحكمون عليها بأدوات الإرث القديم . [37]

بدأت تبعا لذلك لاسيما مطلع القرن العشرين تتشكل مشارب واصول الثقافة العراقية في العصر الحديث ، اذ استطاعت النخبة الناشئة ان تفتح مغاليق العالم الحديث امام ابناء العراق وطبقاته المسحوقة وسمحت لأبناء الطبقات من غير الارستقراطية العراقية ان تلج وبقوة الحياة السياسية ، لتشق طريقها نحو البناء الذاتي لها ، ومن ثم محاولتها توجيه البناء الاجتماعي في العراق وتأسيسه نحو أهدافها السياسية ، اذ شكلت النخبة المدنية الناشئة نواة الحركة الوطنية في

العراق وكان اغلب المنتمين لها من فئة الملاك والموظفين والاداريين وأبناء عدد من البيوت والاسر البغدادية والموصلية واسر أخرى في مدن عراقية مختلفة زودت الدولة بطبقة من الموظفين والمسؤولين والعسكريين ، لاسيما أولئك الذين تلقوا العلم في المدارس والمعـــاهد الأستنبـولية . [38]

الخاتمة واهم الاستنتاجات

- استطاعت الدولة _ بمفهومها الاعتباري لا تشكيلها السياسي _ ان تخضع القبيلة الى سلطتها واتجه البناء الاجتماعي نحو نظام (الدولة الحديثة) ، رغم بقاء الروح العشائرية والقبلية ماثلة في المجتمع و بقوة ، تتأهب فيه الى العودة في اية لحظة وتحت أي عارض يستفز ضعف الدولة ويهتز فيها القانون ، حيث ظل الفرد العراقي يستحضر تاريخ قبيلته او عشيرته في تشكيل هويته قبل ان يستحضر تاريخ (دولته) فالدولة احدث عهدا في قناعة الفرد العراقي من تاريخ قبيلته الماثل دوما في ذاكرته وبشحن اسطوري يؤسس هذا الزخم من الانتماء القبل .

- شهد العراق ابان العهد العثماني المتأخر جملة من مظاهر التحديث والتطور لم تقتصر على جانب واحد بل شملت ميادين مختلفة . كان مجيئ مدحت باشا لحكم العراق نقطة تحول مهمة غيرت كثيرا من نمط الإدارة في العراق .

- كانت مشكلة العراق الأساسية سيطرة القوى العشائرية على مقاليد الأمور والعمل على الاستمرار بحالة الفوضى الامر الذي جعلها هدفا للحملات العثمانية وهذا أيضا دفع القوى العشائرية للخروج عن سلطة الدولة العثمانية ، لاسيما مع فرضها اقسى الأساليب في فرض الضرائب .

الهوامش

1- رميض ، صباح ، (2018) ، التنظيمات العثمانية وتطبيقاتها في ميدان التعليم في ولاية سورية (1841-1880) ، Roufe Educalioaol and Social Journal ، مركز بابير للدراسات التاريخية ، Vol. ,5(6) , ص 698-699 .

2- سلمان ، محمد عصفور، (1981) ، العراق في عهد مدحت باشا (1286-1289هـ) (1869-1872م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب – جامعة بغداد ، ص 64.

3- الخاقاني ، حيدر، ص 448

4- العزاوي ، عباس ، (1956م – 1375هـ) ، عشائر العراق ، ج(4) ،بغداد ، شركة التجارة للطباعة المحدودة ، ص 259.

5-. سوسه ، سعد ، (2018/11/10) ، الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العراق خلال العهد العثماني الأخير (1831- 1914) ، ج 2

www.ahewar.or

6- النجار ، جميل موسى ، (1991) ، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد نهاية الحكم العثماني 1869 – 1917 ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ص 53-54 .

7- لونكريك ، ستيفن همسلي، (1988) العراق الحديث من سنة 1900 الى 1950سنة ، ج (1) ، ترجمة : التكريتي ، سليم طه ، بغداد ، مبطعة حسام ، ص 270 ؛ العزاوي ، عباس، (1375هـ-1955م) ، موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين ، ج 7 ، بغداد ، شركة التجارة للطباعة المحدودة ، ص 152 .

8- النجار، جميل ، المصدر السابق ، ص 47 .

9- البخاتي، حكيم ، (15 اذار 2021) ، غياب النخبوية المركزية وأثرها في إنحلال الدولة العراقية – النخب العراقية: النشأة والتأريخ والإنحلال ، شبكة النبأ 26474/www.annabaa.org/arabic/studies

10- العزاوي ، عباس ، عشائر العراق ، ص 264 .

11- حدد نظام الملكية الأوقاف المضبوطة أي العقارات التي تدار من اوقاف بغداد وغير المضبوطة أي التي تدار من متولين وتم انشاء هيئة إدارة الأراضي السنية للأراضي الزراعية المملوكة للسلطان عبد الحميد الثاني الذي تملك الكثير من أراضي بغداد في ثمانينات القرن التاسع عشر عن طريق الشراء او بوضع اليد حتى بلغت أراضيه نسبة 30% من أراضي بغداد وبعد خلع السلطان عبد الحميد انتقلت ملكية هذه الأراضي الى الدولة سنة 1909 وان اول دائرة طابو ظهرت في بغداد كانت زمن الوالي محمد رؤوف باشا الذي حكم بغداد بعد الوالي مدحت باشا وكانت دائرة طابو بغداد هي المكلفة بتسجيل العقارات والمعاملات المتعلقة بها كالبيع والشراء والرهن والانتقال وسوى ذلك علما ان تلك المعاملات كانت تتم سابقا في المحكمة الشرعية للمسلمين وفي الكنائس للمسيحيين وفي دور العبادة لليهود وهكذا حلت دائرة طابو بغداد محل هذه الجهات .

ينظر : حرب، طارق ،(12 أيلول 2017) ، تأسيس اول دائرة طابو في بغداد ، جريدة الصباح الجديد .

12- المصدر نفسه .

13- العزاوي ، عباس ، عشائر العراق ، ص 264 ؛ عبد الرزاق، صلاح ، (26 تشرين الثاني 2019) ، مدحت باشا واصلاحاته في العراق ، ج (4) https://www.azzaman.com

14- البخاتي ، حكيم ، المصدر السابق .

15- الربيعي، إسماعيل نوري مسير ،(1995) ، الفكر السياسي في العراق خلال فترة ما بين الحربين ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية الدراسات العليا – الجامعة الأردنية ، ص 68

16-الاموي ، محمد عصفور سلمان ، (2005) ، حركة الإصلاح في الدولة العثمانية واثرها في المشرق العربي 1893-1908، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية الاداب – جامعة بغداد ، ص 286.

17- كانت سوق الشيوخ هي المركز التجاري المهم في المنتفك وكانت هي مركز اللواء ولكن مدحت باشا ارتأى اختيار موقع اخر ليكون المدينة الجديدة ووقع الاختيار على مكان شمال سوق الشيوخ على بعد 25 كم على نهر الفرات . وارسل مدحت باشا الى المهندس البلجيكي جولس تللي

وكلفه ببناء مدينة الناصرية وسميت بهذا الاسم نسبة لناصر السعدون وهي اول مدينة عراقية تشيد على طراز معماري حديث وباسلوب التخطيط الحديث للمدن .

ينظر : الوردي ، علي ، (1971)، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث من سنة 1831 الى سنة 1872 ، ج 2 ، بغداد، دار الارشاد ، ص 273–274 ؛ عبد الرزاق ، صلاح ، (، 23 تشرين الثاني 2019) ، مدحت باشا واصلاحاته في العراق ، ج 3 ، جريدة الزمان https://www.azzaman.com

18– عبد الرزاق ، صلاح ،المصدر نفسه .

19– دادود باشا : هو اخر ولاة المماليك الذين حكموا بغداد عين واليا على بغداد للمدة بين عامي" 1817–1831" ، يعود اصله ونسأته الى تبليسي في جورجيا عام 1767، ، تدرج في المناصب التي تولاها حتى أصبح والياً على بغداد بعد وفاة سليمان باشا، أشتهر عنه غزواته للعشائر المتمردة في " لواء الدليم " كما اشتهر عنه شجاعته في حروبه ضد قوات بلاد فارس التي كانت تنوي احتلال بغداد 1818–1821 .

لمزيد من التفاصيل ينظر : عز الدين ، يوسف ، داود باشا ونهاية المماليك في العراق ، (1386 هـ – 1967 م) ، بلا مكان ، دار البصري .

20–ناجي ، سحر احمد ، التعليم الحكومي الأجنبي في العراق خلال العهد العثماني ، ص2

www.researchgate.net/publication/338165808_altlym_alhkwmy_walajnby_fy_alraq_khlal_alhd_althma

21 – المصدر نفسه ، ص7 ؛ الهلالي ، عبد الرزاق ، (1959) ، تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني 1638–1917، بغداد ، شركة الطبع والنشر الاهلية ، ص 52.

22– ناجي ، سحر احمد ، المصدر نفسه .

23– تختلف المصادر في تحديد سياق زمني لأول المدارس الخاصة بالاناث والتي تأسست في العراق ففي الوقت الذي يؤكد فيه فاضل بيات في بحثه الموسوم " التعليم في العراق في العهد العثماني دراسة تاريخية في ضوء السالنامات العثمانية – القسم الأول ، ص 35 " انه لم تخصص اية مدرسة للإناث الا في عهد الوالي نامق باشا 1861–1867 الذي أسس لهن مدرسة ابتدائية وأخرى رشدية وصولا الى اخر سالنامة عثمانية للعام 1911 حيث ذكرت ان عدد المدارس بلغ ثلاثا ضمت 149 طالبة ومدرسة اناث ابتدائية في محلة سرجخانة في ولاية الموصل اما سالنامة البصرة الصادرة عام 1899 اشارت الى مدرسة ابتدائية واحدة خصصت للإناث وفي العام 1902 أصبحت في البصرة مدرستان للإناث احداهما كانت في العشار هذا بخلاف المدارس الرشدية للإناث . ويؤكد جميل موسى النجار في مؤلفه " التعليم في العراق في العهد العماني الأخير 1869–1918 " ان تأسسيس مدارس للبنات لاسيما تلك التي تتبع الارساليات التبشيرية ، بعد ان منح قانون المعارف الحق لغير المسلمين في انتشاء مدارس خاصة للبنين والبنات ، قد سبق العام 1877 اذ يشير الى ان طائفة الأرمن الارثوذوكس قد انشأوا مدرسة ثانية للبنات عام 1877 .

24 – الجبوري ، هيثم محي طالب و الجبوري ، زينب حسن عبد ،(2015) ، اثر حركة الإصلاح العثماني في تطور الحركة الفكرية في الوطن العربي في العهد العثماني المتأخر ، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية / المجلد (23) ، العدد(3) ، ص 1453.

25 – " بيات ، فاضل مهدي ، (1988) ، التعليم في العراق في العهد العثماني في ضوء السالنامات العثمانية ، مجلة المورد ، المجلد (17) ، العدد (2) ، بغداد ، 30 "

26– المصدر نفسه ، ص 31 .

27–" المصدر نفسه ، 33–35 .

28 – ناجي ، سحر احمد ، المصدر السابق ، ص 7 ؛أبو دلة ، سالم هشام عباس ، التعليم والمعارف في العراق خلال الحقبة الزمنية 1534–1933م ، مجلة اهل البيت ، العدد(32) ، ص 276–277.

29 –بيات ، فاضل مهدي ، المصدر نفسه ، ص 35 –36

30– الجبوري ، هيثم محي طالب و الجبوري ، المصدر السابق ، ص 1453.

31– الحميري، علاء خميس علوان ، (30 ابريل / نيسان 2019) ، تطور التعليم في العراق واثره في الحياة الاجتماعية 1912–1958، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربية والإنسانية – جامعة بابل، المجلد 2019، العدد(43) ، ص 1132.

32– المصدر نفسه ، ص 1133 .

33 – الربيعي، إسماعيل نوري مسير ، المصدر السابق ، ص63 .

34- المصدر نفسه ، . 64

35- المصدر نفسه ، ص 70-72

36-البخاتي ، حكيم ، المصدر السابق .

37- - فياض ، عامر حسن ، (2017/9/6) ، حسين الرحال وبدايات الفكر الاشتراكي في العراق ، جريدة المدى
www.almadasupplements.com

39- - الربيعي، إسماعيل نوري مسير ، المصدر السابق ، ص63 .